بيت الجنون : مسرحية فلسطينية رائدة

ريتا عوض

عندما ندرس الادب الفلسطيني في ظل الاحتلال الصهيوني فنحن لا ننظر اليه من حيث هو ظاهرة منقطعة عن التيار العام الذي انصب فيه الادب العربي الحديث ، بل من حيث تكونه داخل الاطار الذي يحتضن الادب في الاقطار العربية الاخرى . لكن عاملا مغايرا للعوامل التي يتألف منها الادب العربي الحديث قد يدخل ، احيانا ، في بنـــاء الاعمال الادبية الفلسطينية تحت الاحتلال ، وهو تأثر هذا الادب بالجو الثقافي العام في فلسطين المحتلة ذاتها .

لعل هذه النظرة الشاملة تساعدنا على تعليل بعض الظواهـــر الادبية في فلسطين المحتلة ، فندرك مثلا علة تقدم شكل من أشكال التعبير الفني على الآخر . ولا أتحدث هنا عن القيمة الفنية للاعمال الادبية لان الادب الفلسطيني ، برأيي ، لم يدرس بعد دراسة جدية تحله مكانه الحق بين الاعمال الادبية في العالم العربي . لكنني أقصد التوجه الى شكل من أشكال التعبير الفني دون الآخر . فالاعمال الادبية التي وصلتنا مـــن الارض المحتلة ، كانت في معظمها شعرا . ولم يبلغنا سوى عدد قليل من الروايات والقصص القصيرة . ولا أعرف سوى عمل فني واحد في مجال المسرح هو مسرحية توفيق فياض(١) **بيت الجنون**(٢) . ولعل أحد أسباب اندفاع الادباء العرب في فلسطين المحتلة الى التعبير بالشعر هو أن حركة الشعر الحديث في العالم العربي كانت أكثر الفنون الادبية تبلورا لما يدعمها من تراث شعري عريق . بينما ظلت الرواية والقصة القصيرة اقل تبلورا . أما المسرح العربي فما زال في بداية البداية .

يهمني في هذا المجال أن ادرس هذا العمل المسرحي الفرد الذي وصلنا من الارض المحتلة . أن العرب في فلسطين يعانون فقرا مؤلما في مجال الفن المسرحي ، حتى انهم لا يملكون مسرحا . ولا يصعب علينا أن ندرك السبب في ذلك . فالسلطات الاسرائيلية لا يمكن ان تسمح ببناء مسرح عربي يغدو مركز تجمع يلتف فيه العرب حول اعمال فنية تدين الاحتلال الصهيوني وتدعو الى المقاومة . وقد أحس المواطنون العرب في ظـــل الاحتلال بافتقارهم الى المسرح . يقول توفيق زياد : « ان الاقليـــة العربية لا تملك مسرحا ... هذه هي الحقيقة المرة ... وهذه هي احدى وصمات العار المختلفة في جبين الرجعية الحاكمة ، واصحاب سياسة الاضطهاد القومي الذين يعرقلون ، وينظرون بقلق وعدم رضا ، الى كل خطوة الى أمام يقطعها المثقفون العرب في اسرائيل ، في مجال الابداع الفني والثقافي ، وذلك اثباتا لنظريتهم القائلة ان العرب شعب قاصر فكريا »(٣) .

أضف الى ذلك ان المسرح الاسرائيلي نفسه يعاني « أزمـــة في الموضوع والتعبير الفني »(٤) على حد تعبير توفيق زياد ، فينتفي وجود تجربة مسرحية يفيد منها الاديب والفنان العربي في ظل الاحتلال . لكن المسرح الاسرائيلي يقدم من حين الى آخر اعمالا مسرحية عالمية ، او تزور البلاد فرق مسرحية اجنبية(٥)، الامر الذي يتيح للمثقف العربي أن يعيش أحيانا في جو مسرحي . ولعل مسرحية توفيق فيـــاض **بيت الجنون** كانت ،